شوبنهور والطبيعة البشرية

﴿ أهميتان للعالم : ظاهرية وباطنية ﴾ يقول شوبنهور إن حقائق النظام المادي قد تحوز قيمة ظاهرية كبيرة ، لا باطنية . لأن هذه من خصائص الحقائق الأدبية والفكرية التي من شأنها إبراز الارادة بأسمى أطوارها ، بينما تختص الحقائق المادية بإظهار الإرادة في أحقر أطوارها وأرذل أوضاعها . ويجد شوبنهور في مذاهب الفلاسفة العظام شواهد كثيرة على هذه القيمة الباطنة ، كما أنه يلاحظها في كل مأساة بشرية تمثل أدوارها على مسرح الحياة ، وأيضاً في سلوك الناس ، سبيلي الخير والشر . فيقول إنها شواهد صادقة على هذه الحقيقة المعنوية الخالدة المتخذة لها من العالم الظاهر صورة خارجية . حقيقة تعلن عن طبيعتها العميقة بأسمى أطوارها المحسوسة . وإن الزعم بأن للعالم قيمة مادية لا أدبية أو معنوية ، قائم على نظرة خاطئة في الأساس ، وعلى التواء في العقل والطبع . ومع هذا فإنها نظرة قوية الشكيمة . متمكنة من النفوس ، وتستطيع أن ترفع رأسها بين آن وآخر حتى يجبرها السخط الكوني العميق الشامل على إخفاء ذاتها ، فتختفي لحين ثم ما تلبث أن تعاود الظهور كرة أخرى ، وسيتناول شوبنهور في الحديث التالي هذه الفكرة بالشرح والتحليل والتمثيل محاولاً تبيان الأساس الصحيح الثابت للأخلاق في كل مكان أو زمان ، وبسط النتائج التي تنجم عن اتصاف الانسان بهذه الأخلاق .

﴿ رد على كانت (Kant) ﴾ يتساءل شوبنهور عما يدعو كبار الأساتذة الجامعيين الى الأخذ والتسليم برأي «كانت» في أن شعور الانسان وإيمانه بخطورة قدره وكرامة نفسه ، يستند إلى حقيقة غريزية أصيلة في الإنسان . فلو سألتهم على م تقوم هذه الكرامة والخطورة والعظمة لأجابوا « على أخلاقه » أي أن أخلاق الإنسان تعتمد على كرامته الشخصية وخطورة قدره وعظمة ذاته ، كما تعتمد كرامته وخطورته وعظمته على أخلاقه . ومع ما يبدو

لنا في هذا المنطق من خلل ومغالطة وسفسطة ، فإن من السخف عزو الكرامة وخطورة الشأن إلى كائن كالإنسان ، إرادته أثيمة وعقله محدود وجسمه قابل للفناء . إذ كيف يجوز للإنسان لنفسه الفخر بكرامة أو عظمة ، ما دام إدراكه ينطوي على سوء وكانت ولادته قصاصاً أليماً ، وحياته نصباً وشقاء ، وفناؤه أمراً حتماً .

وأنت حين تجلس إلى إنسان آخر لا تبدي اهتماماً بقدره وأبهته وعلو مجده بالغاً ما بلغ من ذلك . كلا ولا تشير إلى إرادته الأثيمة أصلاً وفهمه الضيق وأفكاره الهزيلة . فأنت بعملك الأول قد تنساق من حيث لا تنوي إلى كرهه ومقته ، وبالتالي إلى الاستخفاف به واحتقاره . أما إذا أردت أن تؤثر فيه أو تستحوذ على مشاعره ، فاضرب على وتر أشجانه وآلامه وأحزانه ، تراه قد استكان وانجذب إليك واستيقظت الرابطة الانسانية التي تربط بينك وبينه ، رابطة وصلة عميقتان وثيقتان تقوم على الضعف البشري الذي يشترك فيه كل الناس ويجعل منهم إخواناً في الحياة ، فيزول ما بنفوسهم من كراهية وتناحر وعداء ، وتشيع المحبة ويسود الرفق والعطف والحنان . ولم يثر هذا الشعور وينبه هذه الرابطة، اعتبارك جليسك موطن احترامك وتمجيدك ، وإنما عطفك وعزاؤك وشفقتك ، وفي هذا برهان على عقم مذهب «كانت» بل فيه ما يدعونا إلى نفي الخطورة والعظمة والكرامة عن الإنسان . وما يجعلنا ننظر اليه كائناً حقيراً مسكيناً جديراً بالرأفة والشفقة .

﴿ نظرة في تقسيم الفضائل ﴾ يرى البوذيون أن الرذيلة هي الأساس والأصل في طبيعة الإنسان ثم تأتي الفضيلة مظهراً معاكساً لها . والرذائل الرئيسة عندهم أربع ، وهي الشهوة والكسل والغضب والطمع . ومنهم من يجعل الكبرياء بدل الكسل ويضيف إليها خامسة هي الحسد . والصوفيون لا ريب تأثروا بهذا التقسيم فجعلوا الرذائل أربعاً بين كل اثنتين منها تقارب وتجانس ، وهي الشهوة ، والطمع ، والكبرياء ، والغضب . ومن الواضح أن الفضائل المعاكسة لها هي العفة ، والكرم ، والتواضع ، والعطف . والذي يوازن بين رأي البوذيين وبين تقسيم أفلاطون الفضائل إلى العدل ، والشجاعة ، والاعتدال ، والحكمة ، يرى أن أفلاطون لم يتخذ لتقسيمه أساساً مبنياً على العقل والمنطق . فقد اعتبر الحكمة فضيلة ، مع أنها من صفات العقل في الغالب ، وليست من صفات الإرادة . كما أن الاعتدال صفة غامضة غير محدودة ، وتشير إلى فضائل عديدة

متنوعة. وأيضاً فإن الشجاعة ليست فضيلة، أكثر من كونها آلة في يد الفضيلة. ومن الجائز أن تكون كذلك في يد الرذيلة. إنها في الواقع من صفات الطبع. والفضائل الرئيسة عند الصينيين خمسة هي الشفقة، والعدل، واللياقة، والحكمة، والاخلاص. بينما الفضائل المسيحية ثلاث الايمان والرجاء والمحبة.

﴿ نقطة بدء الاخلاق ﴾ يقول شوبنهور إن شعور الفرد نحو الغير إما متمثلاً بالحسد أو بالشفقة، هو النقطة التي يتفرّع منها طريقا الشر والخير، أو الرذيلة والفضيلة. وظاهرتا الحسد والشفقة هما عند كل الناس، وإنما بنسب مختلفة، وتنشآن من مقايسة الانسان حظه بغيره، ونتيجة لذلك فإنه يرضخ لإحدى هاتين الخلّتين، وتتسم أطواره وأعماله بميسمها وتتأثر بها. والحسد يشيد حاجزاً قوياً ضيقاً بين (أنا) و (أنت) لكنّ الشفقة تعمل على هدمه وإزالة الفارق بين كل نفس ونفس، لعلّهما تصبحان في النهاية شيئاً واحداً.

﴿ الجبن والشجاعة ﴾ وينتقل شوبنهور إلى التأمّل في الشجاعة والجبن، فيصف الشجاعة بأنها استعداد المرء لمجابهة شرور تهدده في الحاضر، لكي يحول دون وقوع ما هو أعظم منها في المستقبل، بينما الجبن على عكس ذلك تماماً. ويقول إن الصبر قائم على إدراك واضح لشرور أخطر من التي يلاقيها الإنسان في حاضره، وإن تهربه من مواجهة الشرور الحالية بقوة وجلد، قد يجلب على نفسه ما هو أشد منها وأعظم وأعنف. ولهذا كانت الشجاعة من ناحية، نوعاً من الصبر. وما دام الصبر هو الذي يمكن الإنسان من التجلد وضبط الأعصاب إزاء المخاطر، فالشجاعة بواسطة الصبر، تعتبر شيئاً من الفضيلة.

ولا يدري شوبنهور لِمَ لا تسمو الشجاعة إلى مستوى الفضائل الكبرى، ما دام الخوف من الموت في رأيه مبنيّاً على نظرة فلسفية خاطئة. إذ ليس يجوز أن يخشى الإنسان الموت ما دام وجوده موكداً في خارج ذاته، كما في ذاته أيضاً. وليس يضره أو يخيفه موته نفسه، ما دامت حياته مستمرة في الغير. بل هذا ما يجب أن يزهد الحياة في عينه، ويبعث في نفسه الشجاعة لملاقاة الموت غير وجل، ويجعل الجبن لديه أمراً حقيراً ممقوتاً.

يقول شوبنهور: هذا لدى النظر في الشجاعة من ناحية فلسفية عالية. أما إذا اعتبرت من ناحية عادية كان للجبن ما يبرّره ويجوزه عند العامة والدهماء. فالإنسان العادي يرى نفسه

كل شيء في الحياة ، بل يرى ذاته الشرط الأساسي لوجود العالم كله . ولذا فإنه يضع أمر حياته نصب فوق كل همّ وعامل ، فلا يجازف بحياته بدافع الشجاعة ، فيستكين للذل ويعتصم بالجبن لكي يضمن وجوده في الحياة . وعن هذا الأساس فقط ، فقدت الشجاعة منزلتها بين الفضائل الكبرى .

﴿ الطمع — مآلهُ ﴾ يقول هوبنهور إنك إذا نظرت في الطمع من زاوية معينة ، رأيت له محاسن تجعله ضروريًّا للإنسان لازماً لحياته ، فاعتبرته على هذا الأساس فضيلة ، بينما كان التبذير الذي يكون الطرف الثاني رذيلة . لأنك إذا أنعمت النظر في حقيقة التبذير ألفيته ينشأ من تقييد الإنسان اللذة وربطها بالدقيقة الحاضرة بدل الآتية ، وربط اللذة وتقييدها بالحاضر ، يستند إلى الاعتقاد الوهمي الباطل بأن للذة معنىً حقيقيًّا إيجابيًّا . وينجم عن هذا أن يمسي المبذر إن آجلاً أم عاجلاً ، فقيراً معدماً بائساً . إنه ثمن يدفعه لقاء جريه وراء اللذة الجوفاء العابرة القائمة على أوهام باطلة زائفة ، أو مقابل ما طاش عليه غروره وزهوه من كذب المنافقين وولاء الطفيليين الطائرين منه في سرهم ، ومن نظرات الدهماء الرانية إليه بذهول وحسد واستطاف . وبديهي أن يؤول التبذير بصاحبه في نهاية الأمر إلى إتيان الشر (١) .

والدافع للطمع اعتبار الإنسان اللذة أمراً سلبيًّا والسعادة القائمة على سلسلة من اللذائذ غولاً شرهاً نهماً لا يعرف الشبع . بينما ان الألم هو الحقيقة الإيجابية في هذه الحياة . لهذا ترى الإنسان ينهافت على التبذير ليسلك بواسطته سبيلاً إلى اللذة التي تسبه الآلام . ولما كانت إمكانيات الشقاء والألم في الحياة لا تنفد ، ومواطن الخطر لا عدّ لها ولا حد ، فإن الإنسان يلجأ إلى الطمع ليتقي به أكبر شر ممكن . ولسنا نستطيع أن ننعي على الإنسان إفراطه في الطمع والحرص والتقتير ، لأنه ليس في مقدور أحد تعيين الحد الفاصل الذي عنده تنتهي أحكام القدر القاسية ، وأضحت كل حيطة تتخذ ضده بواسطة جمع المال من دلائل الحكمة والعقل . وهل يفيد جمع المال وتكديسه ما دام يؤول مصيره آخر الأمر الى غير صاحبه ، ويصبح سلاحاً واقياً في يد أحد الناس ضد الفاقة والذل ؟ وقد صدق المثل الإسباني القائل « ذو القلب القاسي يهب أكثر من ذي الجيب الخالي » . وعلى هذا الاعتبار يبدو

(١) جاء في القرآن الكريم : « إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين » .

لشوبنهور أن الطمع ليس رذيلة ، وأن التبذير بعيدٌ عن كونه فضيلة .

﴿ الطمع — ما عليه ﴾ يبدَ أن شوبنهور يرى في الطمع إذا اعتبرناه من ناحية ثانية خلاصة الرذائل جميعها . ذلك أن الغرائز الحيوانية في الإنسان تدفعه لملاحقة اللذة الحسية والإندفاع وراءها اندفاعاً أعمى دون التبصر في عواقبها السيئة . إذ حين يشيخ الإنسان ويهرم تنقص مقدرته على إشباع شهواته، وتضعف استجابته للذائذ الجسدية، بسبب ما اعترى جسمه من هزال، وما أصاب قوته من خور وانحلال ، فتستحيل رغبته في الاستمتاع باللذة الحسية إلى عبادة المال ، فيعمل على جمعه وخزنه دون أن يعي لذلك سبباً معقولاً . وبهذه الصورة تسري الحياة من جديد في هذا الجذع اليابس، بعد أن كان أخضر يانعاً زاهراً بجميع أصناف الشهوات . إنّها الرغبة في المال تتمكن من صاحبها وتقوى في نفسه وتتصف به ، وباستطاعتها أن تعمّر أكثر منه إن قُدر لها أن تجري معه في رهان زمني . رغبته هي الشكل المجرّد الذي فيه تتركز جميع شهوات الجسد ومطالبه الدنيئة،وإليه تتحوّل وفيه تنسكب وتتجمع وتتجسّد . ولهذا كان من الأصحّ اعتبار الطمع رذيلة الشيخوخة، والتبذير رذيلة الشباب .

ولعلّنا نرضى إزاء ما نراه للطمع من محاسن ومساوىء على قبول المتوسط الذهبي الذي نادى به أرسطو . فنعتبر الإقتصاد الواقع بين الطمع والتبذير فضيلة . ويحملنا على هذا القول اعتبار كل كمال نسبي في الطبيعة البشرية قريناً لنقص ما ، وكل نقص حليفاً لنوع من الكمال . ولهذا فإننا كثيراً ما نخلط بين ما يبدو لنا في نفوس الناس من نقائص وكمالات ملازمة لها . فنحكم على الحذر مثلاً بالجبن ، وعلى المقتصد بالبخل والمسرف بالكرم وجافي الطبع بالصراحة والجرأة .

﴿ ضعف عقلي وخطة خلقية ﴾ ويلاحظ شوبنهور الخطأ الشائع في الاعتقاد السائد بأن حطّة الخلق والغباء صنوان لا ينفصلان ، وأن منشأهما وأصلهما واحد . ولكن الواقع خلاف ذلك،وإنما يحمل على هذا التصوّر والاعتقاد وجودهما معاً في أغلب الأحوال ، كأنما يطيب لهما العيش تحت سقف واحد . وكثيراً ما يفسد أمر هذه الصداقة ويضطرب حبل الزمالة والألفة المتبادلة بينهما فتنقطع . فقد لا يتمكن الغبي مثلاً من إخفاء لؤمه وغدره

وفساد طبعه . بينما يقدور الذكي أن يستر عيوبه الخلقية إلى حدٍّ بعيد ، فيبدو بمظهر كريم الخلال من ليس على خلقه من غبار . وكم يحول لؤم الانسان وسوء طويته دون تمكنه من رؤيته الحق ناصعاً ، فيتحيّز ضدّه ، فيحكم عليه الناس بضعف العقل وبلادة الذهن .
ولا يزعم شوبنهور أن في الحياة من تخلو طبيعته من عناصر الشر خلوّاً تامّاً ، إذ هو يرى تفاوتاً بين الناس من حيث الطبائع والأخلاق ، كما في العقول . وإن أطيب الناس خلقاً وأنبلهم طينة ، لا تخلو نفسه من بعض بذور الشر والفساد . ويتمنى فيلسوفنا لو كان في مقدور الإنسان أن يرى ذاته مجرّدة عارية كما هي ، إذن لاتضحت له ضآلة الأمانة وزهادة النبل وحب الخير المطوي خلف سحب كثيفة من الرياء والمكر والادعاء الكاذب ، وبرزت لناظريه صورة مرعبة مزرية يندى لها جبين الانسانية عاراً وخجلاً ، تلك هي صورة حيوان الشرّ المكشّر عن أنيابه الجاثم وراء المظاهر البرّاقة الخداعة من الأخلاق المزيفة ، الجالس إلى دفة سفينة الطبيعة البشرية يدفعها ويسيّرها في مسالك الإثم والباطل . فلا جَرَم إذا ما رأيت الكثيرين يختارون أصدقاءهم من عالم الحيوان ، ذلك لأن القلوب تطمئن إلى ما فُطرت عليه نفس الحيوان من البساطة والصفاء والصدق والولاء الذي ندر أن يكون طبعاً فطريّاً أصيلاً عند بني الانسان .

﴿ وجوه وأقنعة عديدة ﴾ ويتساءل شوبنهور قائلاً : « وهل كان العالم المتمدين غير مرقص تعلو وجوه اللاّهين فيه أقنعة عديدة فيبدون جميعاً بوجوه كاذبة ؟ » فثمة الفلاسفة والعلماء وأهل الدين والأدباء والساسة والمحامون والأطباء وجميعهم يظهرون للناس على خلاف حقائقهم ونوازعهم الصحيحة . وما كانت هذه الأسماء الطنانة غير عناوين كاذبة على وجوه مصطنعة تخفي تحتها خلاّب نفع وفائدة شخصية في الحياة . فمنهم الذي استعار قناع المحامي البارع المدافع عن الحق ظاهراً وابتزاز الأموال حقيقة وباطناً (الذين يحاربون الناس بالباطل ليُدحضوا به الحق) . وآخر استعار قناع الوطنية والخدمة العامة لغاية خاصة . وثالث لبس وجه الدين ولحيته الكثة الكثيفة . ولغاية مشابهة بدا بعضهم بوجه العالم الفيلسوف أو المحسن الكبير . والنساء اخترنَ أقنعة الرقة والاحتشام المسيطرة على قلوب الرجال .
وهنالك أقنعة عامة ووجوه متنوّعة زائفة تفيد في تحقيق أغراض كثيرة مختلفة كوجوه

الاستقامة والشفقة واللطف والمحبة والصداقة، وجعلها تتخذ لمقاصد تمويه منتزعة من لب الأنانية المنكرة. وقد يكون التجار هم الصنف الأوحد الذين يبدون على حقيقتهم، وقلما يحتاجون لوجه كاذب. فهم ظاهراً وباطناً يسعون وراء غاية واحدة هي أن يصبح المال الذي في جيبك في النهاية مالهم.

﴿ الانسان حيوان ﴾ وهل كان الانسان في جوهره وحقيقته ضري وحش كاسر وهل كانت الحضارة البشرية غير عملية ترويض وضبط وتهذيب لهذا الحيوان الرابض في أحشاء الانسان! فلينا لا ننتفض دهشة واستغراباً ولا ترتعد فرائصنا رهبة واشفاقاً حين نشاهد الطبيعة البشرية الأولى تنطلق من عقالها محطمة أصفاد النظام والعادات والقوانين، فيبدو عندها الانسان عارياً مجرداً، شراً من الحيوان! ولسنا بحاجة لانتظار الفوضى والعبث بالقانون والاخلال بالنظام الذي يأتيه الانسان من حين إلى آخر على نطاق شامل واسع لندلل على حيوانيته الشرسة الجامحة. ففي حياة الأفراد كما في التاريخ أمثلة واقعية لا تعد ولا تحصى على اتصاف الإنسان بقسوة ووحشية وفظاظة في الطبع لا ترى لها مثيلاً عند الأسد أو النمر أو الضبع. ففينا يقظ ويعمر حيوان الأنانية وغبة الذات الذي يحطم أغلال الحق والعدل وحب الخير بعنف وقوة مرعبة. أوليس وجود مبدأ التوازن الدولي في أوربا دلالة ساطعة على أن الانسان حيوان مفترس ما يكاد يلمس ضعف أخيه الإنسان وعجزه عن الذود عن نفسه حتى ينقض عليه بشراهة الوحوش؟ أو لا ترى إلى جانب حيوان الأثرة وحب الذات حيوانات أخرى تحتشد في صدر الانسان كوحوش الكراهية والغضب والغل والحقد والحسد، وكلها متركزة كالسم في ناب الأفعى تتربص الفرصة السانحة لتسطو على معترض سبيلها في الحياة؟ وهل رأيت غاباً يكتظ بوحوش أكثر شراً وسوءاً وإيذاء من التي تسكن وتعيش وتولد في نفس الإنسان؟

﴿ الحيوان أنبل من الإنسان ﴾ ويتجاوز شوبنهور هذا الحكم إلى القول بأن الحيوان أنبل من الانسان وأسمى. لأن الإنسان هو الوحيد بين طبقات الحيوان الذي يوقع في الغير أذى وألماً لمجرد الرغبة في ذلك، ولا يفعل ذلك غيره من الحيوانات الا بدافع الجوع، أو الذود عن النفس. كلا ولا يعذب حيوان آخر لمجرد التعذيب فحسب. بينما يفعل الإنسان

أكثر من ذلك لأنه مفطور على الأذى والضرر . وهذا ما يجعله دون الحيوان في حطة نفسه وسوء طبيعته . وفي الحياة أمثال كثيرة تثبت ذلك وتؤيده . ولهذا كان الحيوان حكيماً ونسيباً إذا ما خشي الانسان وولى هارباً لدى وقوع بصره عليه . لأن التجارب علمته حقيقة مفيدة لازمة لحياته ما دام خاضعاً للحياة ، وهي أن الانسان هو الكائن الأوحد الذي يقتص قنصاً لا يفيد منه ولا يخشى أذاه .

﴿ الرغبة في الحياة ﴾ ويقول شوبنهور إن الوحش الجاثم في نفس الإنسان هو علة كل نزاع وشر . وليس من يستطيع ترويضه وكبح جماحه وتقييده غير العقل حارسه اليقظ الذكي والماهر الجبار . والناس اصطلحوا على تسمية هذا الوحش الكاسر بالناحية الشريرة من طبيعة الإنسان ، مع أنها تمثل في الواقع رغبة الإنسان في الحياة وتمسكه بأذيالها بكل سبيل مستطاع . وتصطدم رغبة الإنسان القوية في الحياة بألوان العذاب في الوجود ، فيعمل على تخفيف آلامه أنزال الألم بغيره . ومن هناك الحقد والغل والكره وجميع أصناف الرذائل الإيجابية المؤذية في الطبيعة البشرية . وقد لاحظ كانت (Kant) أن المادة كامنة من جراء التضاد بين عاملي القبض والامتداد . وشوبنهور يقول ما يشبه هذا فيما يتعلق بالانسان . فالانسان يستطيع أن يضمن بقاءه في الحياة بسبب التضاد والمشادة والتجاذب الكائن بين عوامل الكره او الغضب والخوف التي تتملكه في بعض الأحوال . فقد تمر عليك ظروف تدفعك للاجرام ، لولا عامل الخوف الذي يلطف من طبعك الأثيم ويخفف من حدته . كما أن الخوف يجعل من الانسان مهزلة في أعين الآخرين ، لولا الغضب الذي يتفجر من نفسه فيعينه على مقاومة الخوف وإزالته من نفسه بقدر الامكان .

﴿ الشماتة ﴾ وفي رأي شوبنهور أن الشماتة أو الفرح بما يصيب الآخرين من أذى وضرر ، أسوأ مظهر من طبيعة الانسان . والشماتة تمثل الطرف الآخر من الشفقة التي هي مصدر الإنصاف والرحمة والإحسان . ومع أن الحسد على الضد من الشفقة من ناحية معينة ، إلا أنه نتيجة مباشرة لما يبعث إليه . وهذا ما يبرره بعض الشيء ويجعل منه شعوراً مستساغاً ، فطبعاً عادياً عند بني البشر . وليس يخلو أحد من بعض الحسد ، بل من الجائز المعقول أن يشعر أحدنا بحاجته لأشياء توافرت لدى غيره وجلبت له المسرة والسعادة ، إنما لا يجوز أن

يتطوّر هذا الشعور إلى حدّ الكراهية، فتمقت من تراه أسعد منك حالاً ، وترجو له الأذى وتفرح بمصيبته

﴿ الحسد ﴾ وقد يكون الحسد ممقر العذر حينئذٍ في نفسك ما وهبه القضاء أو الصدفة أو الحظّ من نعم وعطايا للانسان الآخر . ولكنه يسوء ويهبط إلى مستوى حقير دنيء مشين حين تكون النعم من فضل الخالق الأعظم ،مع هذا فانك تجد أن ما ليس للانسان من فضل في الحصول عليه ، وأن ما تسبغه يد الطبيعة الكريمة على أبناء المسكونة من مواهب رفيعة، لأكثر اثارة للحسد في نفوس الناس . فالعقل الكبير ، والذكاء الألمعي ، حتى العبقرية، لا تستطيع رفع رأسها عالياً والمضي في سبيلها في هذه الحياة دون أن تتوسل الصفح والمعذرة لوجودها حين لا تؤاتيها الظروف، وتؤازرها الأوضاع ، على تحدي العالم واحتقاره بجرأة واعتزاز . وقد يتمكن الحسود يوماً من كسب الأعراض التي تثير كامن حسده كالجاه والمال والحصول على الرقي الزائف الذي لا يمس النفس والروح والعقل ، بل لا يتعدى القشور، فلا تنقذ الانسان من الاصطلاء بنار الجهل الكاوية أو يحول دون ولوجه عالم النسيان الابدي المخيف . بيد أنه لا يستطيع كسب ما يملكه غيره من مزايا عقلية رفيعة وخصائص ممتازة كالذكاء وجمال الخلقة ونبل الفطرة ، وجميع المواهب العالية الموروثة ، فلا يلقى ما يغذي أعصابه المنهوكة المهروءة ويريحها وينفس عن نفسه المكبوتة المخنوقة غير مقت ذي الخصائص الممتازة والدس عليه والتنكر له والانتقاص من قيمته بشتى الأساليب، وحتى يصيب النجاح من هذا ، فانه يحاول إخفاء نواياه الأثيمة بحذق ودهاء مصطنعاً في ذلك جميع ألوان الخداع من تزلف ومكر ورياء . وقد يتعدى ذلك إلى الكذب حتى على نفسه والدجل على غيره ، فيمثل دور غير الآبه المكترث لما يراه في الآخرين من مزايا تؤذيه وتقض مضجعه . وإنه لا يذر وسيلة ناجحة أو يترك فرصة سانحة إلا واستغلها في تشويه مقوّمات شخصية المحسود وتلويث سمعته وطمس شهرته . شأنه في ذلك شأن الأفعى تترقب الفرصة المؤاتية فتلسع عدوها ،ثم تسرع الى جحرها لئلا ترى فتسحق . وهيهات أن يتمكن الحسود مما تتمكن منه الأفعى ، فانه يثير ويحرق بسهولة ، فينم عليه ويفضح أمره ويكشف عن حقيقة أخلاقه صمته ، وما يند على لسانه من عبارات مرّة لاذعة ، كما ترق سمته اسم

الحسود . وكذلك سكونه غير الطبيعي الشاذ ، وأخذال قواه العقلية والنفسية في حضرة رجل المواهب الرفيعة والمدركات السامية ، فلا يقوى على الصمود أمامه بل يذوب ويتصاغر كما تذوب فلول الظلام الدامس وتتقهقر وتتبدد أمام سهام ذكائه الحادة المشرقة . فارقب الحسود وتذكر أنه يبطن العداء ومرارة النفس والبغضاء ، ويعيش في ظلام الكهوف ، ودوماً يسير في الحياة متنكراً متسللاً قلقاً نماماً .

﴿ عقاب وثواب ﴾ يبدو لشوبنهور أن شقاء الانسان في هذا الوجود هو بنسبة فساد طبعه وسوء طويته ، وأنه في واقع الامر ناتج عن هذا الفساد والسوء . ومن هنا كان يسيراً علينا إدراك معنى العدل الالهي المطلق في العالم . وأن في الحياة الدنيا دينونة عظيمة لا تقل عما في الآخرة ، وأن الانسان يلاقي جزاء إثمه في حياته كما في مماته ، وأن هذا الجزاء مساو لما ينطوي عليه خلقه من شرّ وطبيعته من فساد . وشوبنهور ليس بالمتشائم إلى الحد الذي يضيق عليه خناق الوجود فلا يرى فيه غير الاثم والشرّ المتأصل المتمكن من النفس البشرية ، فإنه يلمح أحياناً أنواراً وضّاءة من الامانة والنبل وحب الخير ، تنبعث من جوف مغارة الطبيعة البشرية الحالكة الظلام ، فتزهر الحياة وتشرق وتشيع ثقة الانسان بالانسان .

﴿ غيرك ذاتك ﴾ ويعدّ شوبنهور مصدر الفضائل جميعها مبدأ (غيرك ذاتك) الذي شرحه بتفصيل في كتابه (الاخلاق) . ويعني بذلك أن كل كائن حيّ غيرك هو في الحقيقة ذاتك ، وأن ليس ثمّة من فرق جوهري حاصل بينك وبين غيرك من الاحياء . ولهذا كان كل إحسان تسديه للناس ، وكل صدقة تتقدّم بها ، هي بداءة الصوفية العالية في الخلق البشري ، وكل فضل تصنعه للغير عن قصد نقي ونيّة طاهرة صافية دليل على أنك تعمل منافياً لطبيعة العالم الظاهرة . ذلك أنك تعتبر ذاتك من حيث لا تشعر ، صنواً لفرد آخر منفصل عنك فتعامله كنفسك . ولك شاهداً على هذا حين يتقدم شخص للموت في سبيل غيره راضياً باسماً ، أو قصة الخادم الذي عضّه كلب مصاب بداء الكلب فلم يلهه التفكير بنفسه عن الاهتمام بأمر غيره ، فيقبض على الكلب بقوة خارقة ويدخله غرفة ويرصد الباب عليه لئلاّ يفلت فيؤذي غيره . وقصة الجندي الذي حُكم عليه بالموت ، وحين جثا يستقبل الرصاص دفع عنه كلبه الامين

الجاثم قربه خشية ان يُقتل خطأً . وفي هذا برهان ساطع على أن الانسان قد ينسى ذاته في ساعة الخطر فيوجه عواطفه ويحشد قواه لانقاذ الآخرين . ومن هذا يستنتج شوبنهور أن الانسان لا يفنى بفناء جسمه ، وإنما يعيش في الأحياء الآخرين ، وفيهم يستمرّ بقاؤه في عالم الوجود . وأنه في أسمى أوضاعه الروحية وأحواله النفسية ، يدرك ذلك ويحس به ، وإلاّ لما ألفيته يهتم بأمور غيره ويعمل على استمرار وجودهم في الحياة في حال عجزه هذه الحياة .

﴿ صورتان للوجود في ذهن الانسان ﴾ يرى شوبنهور أن للانسان وسيلتين بهما يعي وجوده في الحياة : الأولى إدراك للوجود قائم على ملاحظة المظهر الخارجي للعالم ، وفيها يرى ذاته شيئاً حقيراً زهيداً إلى حدّ تفعله الزوال من هذا العالم الذي لا يُحدّ ، وانه واحدٌ من ملايين مثله يسعون على وجه هذا الكوكب لفترة وجيزة ويتجددون كل ثلاثين عاماً . والثانية تتأتى من تغلغل الانسان بثاقب فكره إلى أعماق ذاته وسبر أغوار نفسه فيفضي به ذلك إلى الشعور بأنه (الكل في الكل) ، وأنه الكائن الحقيقي في هذا الوجود ، وأنه ككائن حقيقي يرى ذاته مكرّرة في الآخرين الذين يبدون له كأنما هم ذاته الحقيقية قد انعكست في مرايا .

والصورة الاولى تطابق مبدأ كانت (Kant) القائل بتوزع الحياة على أفراد عديدين . والثانية من العقائد التي جاء بها الفيدا (Veda) الكتاب المقدس للبرهمية في الهند . وربما اعترض أحدهم على الصورة الثانية ملاحظاً استحالة إدراك الربط والوصل بين كائنين منفردين وإدماجهما في وجود واحد وحياة واحدة جامعة ، بالرغم مما بينهما من انفصال زماني ومكاني كما تدلّ ظواهر الأشياء . ويجيب شوبنهور بقوله إن مبدأ (كانت) القائل بتوزع الحياة على أفراد عديدين يساعد على توضيح هذه الصورة وطبعها في النفوس والأذهان . ذلك ان الرغبة في الحياة من الخصائص الاساسية لجميع الكائنات الحية ، منفردة وكذلك مجتمعة تمثل الحياة ككلية واحدة في جميع الأزمان . ولهذا كان لسان حال كل كائن حي قوله مخاطباً ذاته « ما دمت آمناً على نفسي ، فلست أسأل لو هلك العالم كله » .

ويؤكد شوبنهور أنه لو ظلّ فرد واحدٌ حيّاً وهلك الناس جميعاً فان هذا الفرد يملك في نفسه الوجود الذاتي للعالم بأسره غير منقوص أو منقوص ، ويسخر من فناء العالم كأنه وهمٌ باطل . كما يعتقد أن بفناء ذلك الفرد الباقي فناء كل العالم أيضاً . ولعلّ هذا ما عناه

الفيلسوف الصوفي أنجليوس سيليسيوس Angelius Silesius إذ صرّح باستحالة وجود الخالق بدونه، وأنه بفنائه فناء الله تعالى، وقد يكون هذا القول مطابقاً لما جاء في الحكمة الإسلامية القائلة على لسانه عزّ وجلّ «كنت كنزاً مخفيّاً فأحببتُ أن أُعرف فخلقت الخلق فبهم عُرفت». ويقرّب شوبنهور إلى أذهاننا اعتقاده بوجود الفرد خارج ذاته بظاهرة المشي أثناء النوم. فمع ان السائر أثناء النوم لا يفقد ذاته، فانه حين يستيقظ لا يتذكر ما فعله خلال نومه. وهكذا نجد أنه من الذات الواحدة ينشأ ويتكوّن ويخرج وعيان منفصلان لا يدري أحدهما من أمر الآخر شيئاً!

﴿الخلاصة﴾ وصفوة ما يستنتج من شرح شوبنهور وتحليله الفلسفي للطبيعة البشرية أن للانسان كما للكون حقيقتين باطنية وظاهرية. وأنه من واجب المفكرين وذوي الألباب الالتفات إلى الحقيقة الباطنية الكامنة وراء المظاهر الخارجية، لأنها وحدها التي تعطيه قيمة معنوية غالية. إذ كثيراً ما تخدعنا مظاهر الخلق والتصرف البشري الزائفة فنتصورها حقائق راهنة. وشوبنهور يهدف إلى إزالة التعمية أو التنكير (كاموفلاج) التي يلجأ إليها الانسان في سلوكه في الحياة فتحول بينه وبين رؤية حقيقة ذاته وجهاً لوجه، وتقصيه عن السبيل المفضي به إلى الخير والسموّ والكمال المطلق. ولقد شرحت هذه الفكرة في مقال مبتكر أسميته (وحدانية الانسان) ويتلخص كله في الجملة الآتية (إنه لا فرق بين مشرك بالله ومشرك بالنفس. فلن يدخل ملكوت الله الأحد غير الانسان الأحد. ولعلّ بمقدور الانسان بعد جهاد خلقي عنيف ورياضة روحية صارمة: التوفيق بين ظاهره وباطنه جاعلاً من ذاته إنساناً واحداً ومن نفسه وحدة لا تتجزأ. عندها يسهل عليه أن يرى غيره كذاته فيعامله كنفسه، وإذا ما تمّ له ذلك أصبح عالماً عالم خير ومحبة وتسامح وتضحية وصفاء. فالسلام شعاره وطابعه الحكمة الأزلية الخالدة التي نادى بها الرسول الأعظم «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

السلط — شرق الأردن

جريس القسوس
ب. ع. أدب انكليزي